

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دورة العقيدة الإسلامية - المحاضرة (٥)

ثانياً: العقل الصريح

- المسألة الأخلاقية في مقابل الداروينية
- مبدأ «السببية»: المخلوق لا يُبدَّ له من خالق!
- إثبات أن الكون له بداية (نظرية الانفجار الكوني الأعظم)
- نظرية الضبط الدقيق في مقابل العشوائية أو الصدفة!
- تعقيد الخلية الحية في مقابل العشوائية أو الصدفة!
- لغة الإنسان كظاهرة جديدة تماماً في مقابل العشوائية أو الصدفة!
- الكون كله مُسَخَّر للإنسان وخدمته!

← الداروينية ونقض سريع لها!

- نظرية دارون هي: تطوّر الكائنات الحية عن طريق الانتخاب الطبيعي من بين طفرات عشوائية!
- الحياة بدأ بخلية مفردة أوجدها الإله الخالق! ثم تطوّرت الأجيال المتتابة من هذه الخلايا، فنشأت منها الكائنات عديدة الخلايا، وتميّزت إلى كائنات نباتية وأخرى حيوانية! كائنات حيوانية لا فقرية، ثم الفقارية بدأت بالأسماك، ثم البرمائيات، ثم الزواحف، وتطوّرت بعض الزواحف إلى الطيور والثدييات، وظلّت الثدييات تتطوّر حتى وصلنا إلى الرئيسيات التي منها الفِرْدَة، ويأتي على رأسها الشمبانزي، ثم الإنسان.
- النظرية تقول إن الشمبانزي يجمعه بالإنسان سلف مُشترك! والنظرية بذلك تقول إن الشمبانزي ليسوا أسلافنا، ولكنهم أبناء عمومنا!
- أثبت العلم عجز الطفرات العشوائية عن إحداث التطوّر! البيولوجيون يُقدّرون أن ٩٩٪ من الطفرات العشوائية التي تحدث في الشفرة الوراثية تكون ضارة! بينما قد تكون ١٪ منها مفيدة! وقد أجرى الباحثون التجارب على ذبابة الفاكهة وعلى البكتريا القولونية فعجزوا عن الحصول على طفرة واحدة مفيدة خلال آلاف الأجيال التي استكثروها!

- يقول مايكل روس (وهو فيلسوف تطوّرّي مُنصف): «يَكُنُّ الصِّراع في مُحاولَة استغلال الكثرين لنظرية التَّطوُّر لنفي وجود الإله. لقد صار التَّطوُّر بالنَّسبة لأنصاره ديانة لا إلهية».

← المسألة الأخلاقية في مُقابل الدَّاروينية!

- يسهل تفسير دافع الأناية بألية الغاية تُبرِّر الوسيلة، فمن الصَّعب تفسير دافع الصَّمير، أمَّا دافع الإيثار، فسيظلُّ بمثابة الصَّخرة الكؤود في طريق التَّطوُّر الدَّارويني. لا شكَّ أنَّ الإيثار من أصعب الأخلاق التي يعجز التَّطوُّر عن تفسير نشأتها، فالإيثار يعمل ضدَّ هدف التَّطوُّر الرَّئيسي، وهو المُحافظة على حياة الفرد، فما الذي يدفعني للتَّضحية بذاتي من أجل المُجتمع والجنس البشري؟!
- إنفاق الوقت والجهد والموارد من أجل المُحافظة على شريحة غير مُفيدة للمُجتمع يتعارض بشكلٍ صارخ مع الانتخاب الطَّبيعي الذي يُحافظ على الأصلح، ويتخلَّص من الضَّار، فهل يعمل التَّطوُّر ضدَّ قوانينه؟!
- قاعدة داروينية شديدة الخطورة: وصفنا لسلوك ما بأنَّه جيّد أو سيِّء يكون من مُنطلق الفائدة المادِّية، وليس القيمة الأخلاقية، أي ليس هناك أخلاق فاضلة وأخرى دنيئة!
- فيلسوف الإلحاد توماس هوبز اعتبر أنَّ الطَّبيعة ليست إلَّا مادَّة مُتحرِّكة، وبالتالي فهي ليست فاضلة أو غير فاضلة، إنَّها فقط لا تُبالي بالفضائل، لذلك لا ينبغي أن نتحدَّث عن خيرٍ وشرٍّ مُجردين، تماماً مثلما لا نتحدَّث عن تفاعل كيميائي خيرٍ وآخر شرير، إنَّها أمور تحدث بالضرورة، ومن ثمَّ فالخير والشرُّ ليسا إلَّا انعكاساً لرغبات الإنسان، ما يُحبُّ وما يكره، ومن ثمَّ فهي مفاهيم نسبية، فأخلاق الإنسان عند المادِّيين ليست إلَّا تفاعلات مادِّية.
- نيتشة فيلسوف النَّازية: إنَّ كوناً بدون إله يكون خالياً من مفاهيم الخير والشرِّ، بل إنَّ هذه المفاهيم ليست إلَّا تصوُّرات يفرضها الإنسان على الكون الذي لا يُبالي به.
- ادَّعى الملاحدة أنَّ الثَّورة العلمية شاركت في تشكيل منظومتنا الأخلاقية المُعاصرة.
- أينشتين يقول: لا يُمكن أن يكون العلم مصدرراً للأخلاق، لا شكَّ أنَّ هناك أسساً أخلاقية للعلم، لكننا لا نستطيع أن نتحدَّث عن أسس علمية للأخلاق، لقد فشلت وستفشل كلُّ المُحاولات لإخضاع الأخلاق لقوانين العلم ومُعادلاته.

- الفيزيائي ريتشارد فينمان الحائز على جائزة نوبل يقول: إنَّ أكبر القوى والقوانين الفيزيائية لا تستطيع أن تُبيِّن لنا كيف نستخدمها، إنَّ العلم لا يُعرِّفنا الخير والشرَّ، لذلك فالقيم الأخلاقية تقع خارج مجال العلم، لقد جعلنا العلم أكثر معرفة وأكثر قُوَّة، لكنَّه تركنا في الوقت نفسه أقلَّ ثقة بالصواب والخطأ.
- دوكنز زعيم الملاحظة يرفض أن تكون أخلاق التطُّور هي مرجعيتنا، ويقول: إنَّ الانتخاب الطبيعي في التطُّور الدَّارويني لا يُنتج إلاَّ أمثال هتلر! والمجتمع الدَّارويني لا يكون إلاَّ مُجمَعاً فاشستي ينتشر فيه التَّعصُّب العنصري والتَّصنيفية العرقية.
- يطرح الفيلسوف الألماني الكبير «إيمانويل كانت» ما يُعرف بالدَّلِيل الأخلاقي للاستدلال على تواصل السَّماء بالأرض، ويشرحه قائلاً: «إنَّ ظمأنا للماء هو دليلنا على وجود الماء!، ويعني ذلك أنَّ الطَّفل يظمأ للماء قبل أن يعرف بوجوده! حتى أنَّ هذا الظَّمأ هو أكبر دليل على وجود الماء»، وقيس على هذه الحقيقة قائلاً: «كذلك شوقنا للعدل هو الدَّلِيل على وجود العادل!، فالإنسان يُشاهد ما في الوجود من ظُلمٍ، ولا يستسيغ أن تنتهي الحياة على الأرض وينجو الظالم بظلمه دون قصاص، لذلك يرتاح الإنسان كثيراً لفكرة البعث والقصاص في حياة آخرة».

← مبدأ «السَّببية»: المخلوق لأبَد له من خالق!

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ (٣٧)﴾ [الطور]

إنَّ شيئاً من المُمكنات لا يحدث بنفسه من غير شيء؛ لأنَّه لا يحمل في طبيعته السَّبب الكافي لوجوده، ولا يستقلُّ بإحداث شيء؛ لأنَّه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو.

إذا كُنَّا لا نستطيع "تصوُّر" الإله الذي لا مُوجد له، فإنَّ الإقرار العقلي بهذا الإله يُصبح أمراً لا مفرَّ منه منطقياً، والإقرار العقلي بمفهوم ما مع العجز عن تصوُّره ليس بالأمر المُستحيل، بل إنَّه يُقابلنا في حقائق العلم! الفيزياء الحديثة (الكوانتم) تُخبرنا أنَّ الجسيمات تحت الذَّرِّيَّة يُمكن أن تُوجد في أكثر من موقع في وقتٍ واحدٍ! إنَّها حقيقة علمية وإن كان يستحيل تصوُّرها!

شرح دارون عقيدته قائلاً: «من الصَّعب جداً، بل من المُستحيل، أن يكون كوناً هائلاً ككوكبنا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء! أو لأنَّ الحاجة أم الاختراع! وعندما أبحث حولي عن السَّبب الأوَّل وراء هذا الوجود، أجدني مدفوعاً إلى القول بمُصمِّم ذكي، ومن ثمَّ فيَّي أو من بوجود الإله!».

← إثبات أن الكون له بداية!

- إثبات أن الكون يتمدَّد.
- تناقص حرارة الكون تدريجياً، فلو كان الكون أزلياً لوصل إلى العدم الحراري، ممَّا يعني فناء الكون، لذلك فبقاء كوننا حتى الآن يعني أنه ليس أزلياً.
- تسجيل الضَّجيج الكوني الذي صاحب الانفجار الأعظم الذي أنشأ الكون.
- توزيع العناصر الخفيفة (الهيدروجين والهيليوم) بشكل مُتساو في مُختلف أرجاء الكون يُثبت أن الكون نشأ بحادث واحد مهول مُنتج للحرارة، وهو الانفجار الكوني الأعظم.

← أكثر النظريات قُبُولاً لتفسير نشأة الكون

نظرية الانفجار الكوني الأعظم Big Bang Theory

- انطلاقاً من حقيقة أن الكون يتمدَّد، فإذا رجعنا إلى الوراء يوماً قبل يوم نجد أن الكون كان أصغر وأصغر، وهكذا حتى نصل إلى يوم كان الكون مُجرَّد نقطة تحمل كتلة وطاقة الكون كلَّه!
- هذا اليوم يرجع إلى قرابة ١٣,٧ مليار سنة!
- النقطة التي بدأت منها نشأة الكون اسمها المُفردة Singularity، وفي يوم لا أمس له انفجرت تلك المُفردة فأطلقت كل ما في الكون من طاقة!
- تكثَّف بعض من طاقة الكون إلى ما تكوَّنت منها مجرَّات الكون، بما فيها من نجوم وكواكب منها كوكبنا الأرض.
- قبل وجود المُفردة لم يكن إلَّا عدم مُطلق! بانفجارها نشأت الطاقة والمادة كما بدأ الزَّمان ونشأ المكان.

تشمل نظرية الانفجار الأعظم على عدد من المعالم الخارقة والتساؤلات التي لا يملك العلم لها تفسيراً:

- ما مصدر المفردة التي ظهرت من العدم؟
- ما مصدر قوانين الطبيعة التي وجَّهت نشأة الكون؟
- اتَّسمت المفردة بعدد من الصِّفات التي تتجاوز قوانين الطبيعة! فقد كانت أصغر من أصغر طول تسمح به قوانين الطبيعة! كما كانت كثافتها تفوق الحدّ الذي تسمح به هذه القوانين!
- ينصّ القانون الثاني للديناميكا الحرارية على أنّ: في منظومةٍ ما، تؤدّي الفوضى إلى مزيد من الفوضى، فما هو المنظمّ الذي نظّمها ليُنشئ المجرّات بما فيها من نُجوم وكواكب؟!
- تجاوزت سرعة تمدّد الكون سرعة الضوء بمليارات المرّات، بينما الثابت أنّ سرعة الضوء هي أعلى السرّعات في الطبيعة!
- لماذا انقطع العدم المطلق ليبدأ الوجود في هذه المرحلة بالذات؟!
- ما هو العامل المرّجح الذي حدّد أو قرّر ذلك؟!

الملاحظة ونشأة الكون:

- الكون قد شكّل ذاته!
- قوانين الطبيعة سبب نشأة الكون!
- النظريات والقوانين تصف مسار الأمور بدقّة لكنّها لا تُخرج شيئاً من الوجود.
- فرضية الأكوان المتعدّدة!

○ أي احتمالية وجود ما لا نهاية له عدداً من الأكوان بعدد الطُّروف الفيزيائية المُحتملة!

← نظرية الضبط الدقيق (Fine Tuning) في مُقابل العشوائية أو الصدفة!

- ثوابت الكون الفيزيائية تمّ ضبطها بدقّة مُتناهية بحيث يتلاءم بعضها مع بعض بالهيئة التي سمحت بنشأة الكون، من هذه الثوابت: سرعة تمدّد الكون - توزيع المادّة في فراغ الكون - مقدار الجاذبية بين الأجرام السماوية - مقدار سرعة الضوء.
- أدنى تغيير في مقدار هذه الثوابت ولو بجزء من مليار جزء ما كان يسمح بنشأة الكون واستقراره.
- تدل دقّة بنية الكون وقوانينه على وجود الإله الحقّ.

مثال نقله «وحيد الدّين خان» عن العالم الأمريكي «كريستي موريسون» يُبيّن فيه استحالة القول بوجود الكون مُصادفة! قال: «لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة، ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيّداً، ثم حاولت أن تُخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي، بحيث تلقي كلّ درهم في جيبك بعد تناوله مرّة أخرى، فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد في العشرة، وإمكان أن نُخرج الدّراهم (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب من ١ إلى ١٠، واحد في عشرة بلايين!».

← تعقيد الخلية الحيّة في مُقابل العشوائية أو الصدفة!

جزيئات الدنا DNA لولبية الشّكل تُكوّن كروموسومات الخلية، يوجد ٢٣ زوجاً من الكروموسومات في نواة كلّ خلية، يبلغ طول كروموسومات كلّ خلية ٢,٠٤ متر، يبلغ طول سلاسل جزيئات الدنا في خلايا جسم الإنسان الواحد قرابة ٢٠٤ مليار كيلومتر، أيّ أنّها تقطع المسافة من الأرض إلى الشّمس قرابة ١٣٦٥ مرّة، قد تؤدّي إصابة أيّ حلقة من حلقات هذه السلسلة والتي تبلغ ٧ مليارات حلقة في الخلية الواحدة إلى موت الجنين أو إصابته بمرض خلقي خطير!

إنّ مُكوّنات الدّرة (إلكترونات - بروتونات - نيوترونات) تُنتج بخلطة مُعيّنة حفنة من الرّمال! ونفس المُكوّنات أنتجت خلايا مُخ أينشتين! إنّها نفس مجالات الطّاقة!

أهمّ ما يميّز الخلية الحيّة عن الموجودات غير الحيّة أنّها موجود ذكي يُمارس عدداً من النّشاطات، لا بُدّ من الإقرار بحتمية أن يكون مصدر الحياة الذّكية إله خالق ذكي!

كيف استطاعت الطّبيعة، دون توجيه ذكي من إله، أن تُوفّر المعلومات الهائلة المطلوبة لنشأة الحياة وتنظيمها، والتي تبلغ ملايين البتات Bits؟! في الوقت الذي أثبتت فيه الدّراسات عجز الكمبيوتر عن الحصول بالصدفة على مقولة لشكسبير تحتوي على ٤٠٠ بت من المعلومات فقط!

تستخدم الخلية في الاحتفاظ بالمعلومات ونقلها نظام الشّفرة، فللخلية أبجدية تتكون من ٤ حروف (٤ مرّكبات كيميائية) تراص في نواتها بطُرق مُختلفة لتُدوّن الكمّ الهائل من معلومات الخلية، إنّ آليّة التّشفير هذه تفوق أدقّ آليات التّشفير التي ابتكرها الإنسان ويستخدمها في أحدث اختراعاته!

جُزِيء الهيموجلوبين الذي يحمل الأوكسجين في كرات الدم الحمراء، يتكوّن من ٤ سلاسل من الأحماض الأمينية، يبلغ مجموعها ٥٣٩ حمضاً أمينياً هي تكرر لعشرين نوعاً من هذه الأحماض، عدد الترتيبات المحتملة التي يُمكن أن يتراص بها الـ ٥٣٩ حمضاً أمينياً يبلغ رقماً مهولاً، مقداره (١) وعلى يمينه ٦٢٠ صفراً! ترتيب واحد هو المطلوب كي يؤدّي الجزيء وظيفته في نقل الأوسوجين في جسم الإنسان!

أهم عملية في تخليق جُزِيء البروتين هي الهيئة التي تلتف بها هذه السلاسل! إنَّها عملية بالغة التعقيد! إذا وضعنا المعلومات المطلوبة للّف سلسلة جُزِيء بروتيني صغير يتكوّن من مائة حمض أميني مثلاً في سوبر كمبيوتر ليقوم بهذه العملية بمحاولات عشوائية، فإنّه سيستغرق حوالي (١) وأمامه ١٢٧ صفراً من السّنوات! بينما يتمّ ذلك في الخلية الحيّة في جزء ضئيل من الثانية!

مُعضلة البيضة والدّجاجة! العلاقة بين جزيئات البروتينات وجزيئات الدنا DNA، بناء جزيئات البروتين يحتاج إلى وجود الشّفرة الوراثية، عمل جزيء الدنا يحتاج إلى جزيئات البروتينات!

البروتينات لا تنشأ دون الدنا! والدنا لا يعمل إلّا بالبروتينات! كيف ينشأ نظامان مُختلفان مُستقلّان عشوائياً في الوقت الذي يحتاج كلّ منهما للآخر لوجوده ووظيفته؟! لم يبق إلّا القول بأنّ الإله الخالق قد أوجد المُركّبين دون احتياجهما للآخر.

← لغة الإنسان كظاهرة جديدة تماماً في مُقابل العشوائية أو الصدفة!

تُعتبر اللّغة أحد أهمّ النّشاطات العقلية التي تُميّز الإنسان، ويستخدم الإنسان المعاصر اللّغة بشكل تلقائي، وببساطة شديدة، بحيث يبدو التّفكير في ماهيتها أمراً لا معنى له!

إنّ ما أثبتته العلم من عجز التّطوّر العشوائي عن إنشاء لغة الإنسان، وما أثبتته كذلك من انبثاق اللّغة الإنسانيّة كظاهرة جديدة تماماً، لا يدع لنا إلّا قولاً واحداً لتفسير هذه النّشأة، وهو الخلق الإلهي المُباشر!

يُخبرنا الله تعالى في قرآنه الكريم عن اكتساب الإنسان لخمس مهارات مُتتابعة تُشكّل جوهر اللّغة الإنسانيّة، وهذه المهارات هي:

١. الترميز: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة : ٣١]، يعني أنه تعلّم أن يُطلق على كل شيء اسماً، سواء كان شيئاً مادّياً، أو شيئاً غير مادّي، أو معنى مُجرّداً. والقدرة على الترميز من أرقى الملكات العقلية الإنسانية التي لا يُيارسها سواه، وتُعتبر أحد الفروق الجوهرية بين الإنسان وغيره من الكائنات.

٢. ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن : ١-٤]، والبيان هو صياغة الأفكار بتعقّل وتبعاً لقواعد، ويستعمل الإنسان في ذلك الرموز التي اطلقها على الأشياء، كما يستعمل قواعد اللّغة المُبرجة في عقله.

٣. النطق ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات : ٢٣].

٤. السمع ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨].

٥. العقل ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم : ٢٨].

النشاطات العقلية تتجاوز قدرات التطور الدارويني العشوائي، كما أنّ ممارستها تتجاوز قدرة الآلية الكهروكيميائية للمخّ المادّي، ولا تدع للمُنصفين الموضوعيين مفرّاً من الإقرار بدور غيب في النشاطات العقلية، كما تُخبرنا الديانات السّماوية، وهو ما وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر : ٢٩].

← الكون كلّهُ مُسخَّر للإنسان وخدمته!

المبدأ البشري Anthropic Principle: ثابِت الكون الفيزيائية قد تمّ ضبطها بدقّة بحيث تسمح بظهور الحياة على كوكب الأرض، بل وظهور الإنسان أسمى الكائنات.

الإله قد صمّم الكون وكوكب الأرض على هذا التوافق المذهل ليكون مُناسباً لنشأة الحياة بصفة عامّة وظهور الإنسان بصفة خاصّة، وهو ما يُعرف في الإسلام بمفهوم التسخير، أي تسخير كلّ ما في السّموات والأرض لخدمة الإنسان.

تعبير بعض العلماء المؤمنين الغربيين لمعنى التسخير: كيف يستطيع كون خال من الغائية أن يخلق إنساناً تحركه الغائية والأهداف؟! يبدو أنّ الكون قد تمّ تفصيله على مقياس الإنسان! يبدو أنّ الكون كان يعلم أنّنا قادمون!

رابعاً: الشَّرْعُ الصَّحِيحُ

- إثبات أن الشَّرْحَ صحيح دليل على وجود الله عزَّ وجلَّ!
- في رأيي الشَّخْصِي: هذا هو أقصر طُرُق إثبات وجود الله عزَّ وجلَّ وإدخال النَّاس للإسلام!

← أقوى دليل على صحَّة الشَّرْع: إعجاز القرآن الكريم^[١]

تعريف الإعجاز والمعجزة:

- الإعجاز في الاصطلاح هو زوال القدرة على الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير.
- المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة.

أفضل معجزات النَّبِيِّ ﷺ وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذي نزل عليه:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (صحيح البخاري ٤٩٨١).

تعليق مصطفى البغا: (أعطي ما مثله آمن عليه البشر) أجري على يديه من المعجزات الشيء الذي يقتضي إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه. (أوتيته) المعجزة التي أعطيتها. (وحيا) قرآنا موحى به من الله تعالى يبقى إعجازه على مر الأزمان ولذلك يكثر المؤمنون به ويوم القيامة يكون أتباعه العاملون بشريعته المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبي.

شرح ابن حجر العسقلاني: [قوله: «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ» أَي إِنَّ مُعْجَزَتِي الَّتِي تَحَدَّثُ بِهَا: الْوَحْيُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الْوَاضِحِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ حَصْرُ مُعْجَزَاتِهِ فِيهِ، وَلَا أَنَّهُ لَمْ يُوْتَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا أُوتِيَ مِنْ تَقَدَّمَهُ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ الْمُعْجَزَةُ الْعُظْمَى الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ.]^[٢]

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]

^١ هذا الجزء مُختصر للفصل الثالث بعنوان: أبحاث في إعجاز القرآن الكريم، من كتاب: أبحاث في علوم القرآن، للدكتور غانم قدوري الحمد.

^٢ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة بيروت، ج ٩، ص ٦.

الآيات التي تحدّي الله عزّ وجلّ فيها الخلق:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤]

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٧-٣٩]

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٨-٨٩]

المُشركون عجزوا عن الإتيان بمثله أو مثل بعضه

وهو عجزٌ يدلّ عليه التّقلُّ المتواتر الذي يقع به العلم الضّروري!

كان عجز المُشركين من العرب عن مُعارضة القرآن حقيقة لا جدال حولها، وكان عجز غير العرب عن ذلك أوضح، لأنّ العرب - وهم المتكلّمون باللّغة المُنزّل بها - عجزوا عن ذلك مع توفّر الدّواعي وشدّة الحاجة. والعجز عن الإتيان بمثل القرآن كان الدليل على صدق محمد ﷺ ونبوّته.

الدَّواعي وشِدَّةُ حاجة قريش للإتيان بمثل القرآن أو مثل بعضه:

عدم الإتيان بمثل القرآن أو عدم الإيمان بنبوَّة سيدنا محمد ﷺ أدى إلى:

- استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم. فلو كانوا يقدرّون على تكذيبه لفعّلوا، وتوصّلوا إلى تخليص أنفسهم وأهلهم من حكمه. كان ذلك يُغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي!

أمثلة لقصار السُّور:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ [سورة الكوثر]

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣)﴾

[سورة العصر]

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ

تَوَّاباً (٣)﴾ [سورة النصر]

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [سورة الإخلاص]

المبحث الثاني: مناهج العلماء في دراسة الإعجاز

إعجاز القرآن كائن في نظمه وتأليفه (التحدّي بالإتيان بمثله أو بعض مثله)

- ترك المعارضة مع توفّر الدواعي وشِدَّة الحاجة
- القرآن صار مُعجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نُظوم التّأليف، مُضمّناً أصحّ المعاني

الأدلة على أنّ القرآن من عند الله:

- ما في القرآن من مكنون الغيب

○ ما يتضمّنه من الإخبار عن الكوائن في مُستقبل الزّمان

○ ما تضمَّنه من قصص الأولين وأخبار الماضين (مع العلم أنَّ النَّبِيَّ كان أُمِّيًّا وخالف قصص أهل الكتاب وصدق فيما أخبر بالتَّجربة العلمية)

○ الإخبار بما كان من أوَّل خلق الأرض والسماء إلى انقضاء الدُّنيا

• ما في القرآن من دقائق التَّشريع

○ جمعه لكل العُلوم المعارف التي يحتاجها الإنسان

• ما في القرآن من عجائب آيات الله في خلقه

• الأثر الذي يتركه سماع القرآن في النَّفس (صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس)

• كون القرآن آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدُّنيا مع تكفُّل الله تعالى بحفظه

• آيات العتاب

• ما نزل بعد طول انتظار

• نزول القرآن مُنجمًا ومُفرَّقًا طوال مُدَّة ثلاث وعشرين عاماً

المبحث الثالث: ملامح المنهج الأمثل

كثرة وجوه إعجاز القرآن وتباينها في بعض الأحيان لا تُعير من حقيقة إعجاز القرآن، وإنَّما تعكس تفاوت العلماء في إدراك ذلك الإعجاز، وقد أخبر كل واحد منهم بما عرف، لأنَّ أمر القرآن عجيب: «يراه الأديب مُعجزاً، ويراه اللُّغوي مُعجزاً، ويراه أرباب القانون والتَّشريع مُعجزاً، ويراه علماء الاقتصاد مُعجزاً، ويراه المُربُّون مُعجزاً، ويراه علماء النَّفس والمعنيون بالدراسات النَّفسية مُعجزاً، ويراه علماء الاجتماع مُعجزاً، ويراه المُصلحون مُعجزاً، ويراه كل راسخ في علمه مُعجزاً».

المنهج الأمثل:

• تحديد الوجه الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن أو مُعارضته في عصر النَّبوَّة.

○ المُشركون رأوا نظماً عجيباً خارجاً عن أساليب كلامهم، ووصفاً بديعاً مُبائناً لقوانين بلاغتهم

ونظامهم، فأيقنوا بالقُصور عن مُعارضته، واستشعروا العجز عن مُقابلته، وهذا هو الوجه في

إعجاز القرآن.

- إعجاز القرآن من قِبَلِ أَنَّهُ خَارِجٌ فِي بَدِيعِ نَظْمِهِ، وَغَرَابَةِ أَسَالِيْبِهِ عَنِ مَعْهُودِ كَلَامِ الْبَشَرِ، مُخْتَصِّصٌ بِنَمَطٍ غَرِيبٍ، لَا يُشْبِهُ شَيْئاً مِنَ الْقَوْلِ فِي الرَّصْفِ وَالتَّرْتِيبِ، لَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الشُّعْرِ، وَلَا مِنْ صُرُوبِ الْخَطْبِ وَالسَّجْعِ، يَعْلَمُ مَنْ تَأَمَّلَهُ أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْمَأْلُوفِ، مُبَايِنٌ لِلْمَعْرُوفِ، مُتَنَاسِبٌ فِي الْبَلَاغَةِ، مُتَشَابِهٌ فِي الْبَرَاعَةِ، بَرِيءٌ مِنَ التَّكَلُّفِ، مُنَزَّهُ عَنِ التَّصْنَعِ وَالتَّعَسُّفِ.
- وَمِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ طَوَّلُوا بِأَن يَعْرِفُوا دَلِيلَ نُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَلِيلَ صَدَقِ الْوَحْيِ الَّذِي يَأْتِيهِ، بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ نَفْسَهُ، لَا بِمَا يُجَادِلُهُمْ بِهِ.

● تحديد ما جاء في القرآن من الأمور التي تدل على أنه لا يمكن أن يكون من عند أحد سوى الله تعالى.

- الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين، ولأخبار مستقبلية، وقعت كما ذكر، واشتماله على علوم كونية، وحقائق، لم تكن معروفة في عصر محمد ﷺ، وقد أتى بها القرآن، وتقررت حقائقها من بعد، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنساني أنها أصلح من غيرها، وأنها وحدها العادلة، وأن هذا النوع مُعْجِزَةٌ لِلْأَجْيَالِ كُلِّهَا.

إنَّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْمُغَيَّبَاتِ، وَالْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ فِيهَا بَعْدَ، وَقِصَصِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ أَسْرَارِ الْكُونِ، وَبَدِيعِ الصُّنْعِ فِي الْخَلَائِقِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي أَعْجَزَتْ الْعَرَبَ فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ وُقُوفَ النَّاسِ عَلَى مَا فِي هَذِهِ الْمَعَانِي مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنْهَا الْبَشَرُ كَانَ مُتْرَاحِيًّا عَنِ زَمَنِ التَّحْدِي، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ شَاهِدَ الْمُعْجِزَةِ مُتْرَاحِيًّا فِي الزَّمَنِ عَنْهَا، وَاقِعًا فِي أَعْقَابِهَا، وَلَكِنْ ذَلِكَ يُعْطِي الدَّلِيلَ الْمُسْتَمِرَّ عَلَى صَدَقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات